الإصلاح التربوي:

العلاقة بين الرؤية الكونية والمنهجية والأداء التربوي

عبد الحميد أحمد أبوسليمان*

في هذه الورقة يحاول الكاتب توضيح العلاقة بين الرؤية الكلية والمنهجية والأداء التربوي، وكيف أن تصحيح الرؤية الكونية الكلية والمناهج المعرفية المتبعة في الفكر التربوي والممارسة التربوية أمر ضروري لنجاح الإصلاح التربوي.

ويخلص الكاتب إلى أن الدافع الغريزي للأبوة الذي يقود إلى العمل المخلص الدائب لما فيه مصلحة الطفل والناشئة هو المفتاح الأساسي للتغيير في المجتمع وإعادة بناء العقلية والنفسية المسلمة، وذلك إذا قام المفكرون والمثقفون والتربويون بمهمتهم العلمية الثقافية التربوية في صياغة الخطاب المقنع للآباء والأمهات من أجل تجنيد نفوذهم النفسي الغريزي للتغيير البنّاء في نفوس الأطفال والناشئة.

وحاول الكاتب في هذه الورقة، لتحقيق تلك الأهداف، متابعة السير التاريخية للفكر والثقافة الإسلامية ومناهجها المعرفية وما لحق بها من تغيير وتطوير يعكس الرؤية الكونية على عصورها المتلاحقة، وأثر الظروف البيئية على التغيرات التي طرأت على هذه الرؤية، ومن ثم على مناهج المعرفة اللازمة للتجارب مع هذه التطورات وأثر ذلك وانعكاسه على المناهج التربوية، وتكوين العقلية والنفسية لأبناء الأمة في مختلف المراحل التي مر بها تاريخ الأمة وحضارتها حتى اليوم.

وأوضح الكاتب أنه من خلال فهم العلاقة بين الرؤية الكونية ومناهج المعرفة ومناهج التربية، يمكننا إعادة صياغة هذه الرؤية والمناهج لتعكس واقعنا، وتستجيب لحاجات الأمة وظروفها وإمكاناتها، والتحديات التي تواجهها إعادة بناء عقلية أبنائنا وبنائهم النفسي اللذين يقوم عليهما بناء المجتمع وأداء أفراده ومؤسساته، ويرسم طريق عطائه العمراني والحضاري.

---

* دكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة بنسلفانيا سنة 1973 م، رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية.

وأوضح البحث كذلك أن أي إصلاح لا يقوم على فهم كلي شمولي لهذه العلاقات يكون إصلاحاً عشوائياً، لايكتب له النجاح ولا تتحقق أهدافه الأساسية.

كذلك استعرضت هذه الورقة طبيعة الرؤية الكونية التي جاء بها القرآن الكريم ومناهج الفكر التي انبثقت عنها، ثم ما طرأ على المجتمع الصدر الأول من تغيرات نجم عنها الصراع والفصام بين صفوة الفكر والعلماء، وصفوة السياسة والحكم والسلطان وأثر ذلك على قدرة كل فريق على أداء دوره، وما نجم عن ذلك من تشويه للرؤية الكونية الإسلامية التي أدت إلى تغيير في مناهج الفكر لكي تصبح –معصحبها من فكر ومنطق نظري إغريقي –مناهج تابعة جزئية انعكست على ثقافة الأمة ومناهجها المعرفية لتصبح رؤية اجتماعية، قاصرة، فردية، سلبية، ذات مناهج معرفية، جزئية، نظرية، استظهارية، تثبط الدوافع وتقضي على طاقات المبادرة والإبداع في الأمة، يأخذ بها الآخرون من يد الأمة قصب السبق، وينتهي آخرها إلى الضعف والعجز والهوان.

ولكي تتضح الرؤية فإن البحث يبدأ النظر من الواقع المعاش نظراً إلى الماضي لفهم الحاضر للحصول على رؤية مستقبلية مبنية على فهم سليم لمواطن القوة والضعف في بناء الأمة، ومعرفة علمية بقوى النمو والتغيير في كيانها.

أين نحن اليوم:

ليس موضع جدل أن الأمة الإسلامية في كليتها تعاني اليوم من أزمة وجود حضاري وتقبع في هوة يتزايد مداها مع أمم العالم التي تملك زمام التقدم العلمي والتكنولوجي ليبلغ قيمة إنتاج الأمة أقل من قيمة ربع إنتاج اليابان.

فإذن كانت اليابان ليست إلا مجموعة جزر بركانية صغيرة، ضئيلة الموارد الطبيعية، تغطي جل سطحها الجبال، وتعصف بها الزلازل والبراكين، ويقطنها ما يقرب 130 مليون نسمة أدركنا مدى الهوة التي بلغها ضعف أداء الأمة وأبنائها في مجال العلوم والعمران.

فالأمة، رغم ثراء تاريخها وعظيم عطائها الحضاري على مدى عدد مديد من القرون التي انفردت فيها الأمة الإسلامية بالعطاء العلمي والحضاري، فإنها اليوم إما تمثل مصدراً لإنتاج المواد الخام والعمالة اليدوية في استخراج المواد الخام وتركيب المنتجات والصناعات المستوردة.

فإذا كانت صادرات العالم الإسلامي من المواد الخام تساوي الآلاف القليلة من الدراهم، فإن واردات العالم الإسلامي من الصناعات التقنية العالمية تساوي الملايين الكثيرة من الدنانير، والفرق بين منتجات مواردنا ومواردهم هو فعل العقل الحضاري المبدع في مجالات العلم والمعرفة والتقنية.

إن تخلف أداء الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها لم يفقدها فقط موقع الصدارة وعز القدرة وريادة الطريق، ولكنه هدد كيانها السياسي والاقتصادي والثقافي وأثخنها سياسياً واقتصادياً وثقافياً وعسكرياً، بحيث لم يعد لها الكثير من مقومات الأمم إلا الرسوم والشعارات المموهة الزائفة التي لا تخفى إلا على أبناء شعوبها الغارقة في الجهل والغفلة.

ومنذ أن زلزلت غيبوبة الأمة سنابك خيل الغزاة والأمة تتململ في سباتها على محاولات أيدي المخلصين من أبنائها، لتحريك طاقاتها الكامنة واستعادة وعيها الحضاري، وتجديد منطلقاتها السامية. وأخذت هذه الجهود عدداً من المسالك بين جهود دائبة مخلصة، تعمل على تأكيد الهوية وإثارة مكامن الاعتزاز في الأمة وأبنائها من سير غابر أبطالها وبناة حضارتها والغوص في مكنون تراثها، والكشف عن روائع نفائسه التي أسهم بها في رفع بناء الحضارة الإنسانية حين كانت الأمم تغفو في جهالتها، وانحطاط رؤاها الكونية، ومناهجها الفكرية.

وعلى أهمية ما قدم المصلحون والمخلصون من الجهود لرفع معنويات الأمة وإعادة الثقة النفسية لها في مواجهة الهجمة الشرسة عليها من أعدائها، وما يحققونه من وجوه القهر والغلبة لمقدرات الأمة؛وعلى أهمية ما يبذله المصلحون من جهود ثقافية وسياسية وجهاد لإصلاح أداء الأمة وإرساء دعائم كيانها، والحفاظ على هويتها، ودفع الهجمات الثقافية والسياسية والاقتصادية والعسكرية التي تتناوش جسدها في كل موضع ؛إلا أن هذه الجهود لم تفلح حتى اليوم أن تكون على مستوى التحدي الذي تواجهه الأمة في إعادة صياغة العقل المسلم والنفسية المسلمة لتتحلى بصفات إنسان الاستخلاف، ورائداً للإتقان، ومبدعاً للعمران، وقائداً ومرشداً لنهج الحضارة الإنسانية.

ليس لنا على كل الأحوال، ونحن ورثة رسالة الإسلام إلا مواصلة العمل، والبحث والجهد لمعرفة الداء، واستكمال النقص؛ لتكون الأمة على مستوى التحدي العلمي والحضاري الذي يطرحه الغرب، وحتى يمكن للأمة – ممتطية ركب القدرة والإبداع والإتقان والعمران –أن تجسد هداية الإسلام، وأن تطرح بدورها على أمم الأرض تحديها الروحي الأخلاقي الحضاري الذي يحقق للإنسان بعده الروحي، والسلام الحقيقي، والمعنى الكامل للوجود الإنساني.

ولن يتحقق هذا الهدف إلا إذا استكمل رواد الإصلاح والمخلصون من أبناء الأمة أدواتها المنهجية بالفكر الشجاع الناقد، الذي يتخطى الأساليب الدفاعية التي تقف في جوهرها عند حدود رفع الروح المعنوية للأمة، وإثارة روح المقاومة عند أبنائها في وجه الهجمات المعادية الشرسة لكل مقومات الأمة وقواعد بنائها.

إن النظرة النقدية هي أداة منهجية لدفع قوى النهضة والتجديد في فكر الأمة وأدائها.فالنظرة النقدية في جوهرها نظرة إيجابية لا تنطلق إلا من موقع الثقة بالذات وما تمثله من طاقات كامنة وثروة دفينة، ولكنها لا تكتفي بعرض الإيجابيات، وإنما تتخطاها لمعرفة السلبيات والكشف عن العيوب والانحرافات لترشيد المسار وسد الثغرات واستكمال الأدوات.

إن غياب النظرة النقدية الذاتية الشجاعة الجادة في فكر كثير من مفكري الأمة وما يلاقيه فكر النقد والتمحيص من مقاومة ونفور لا يسمح بالحوار والتمحيص وتدقيق الأمور، فإن ذلك مرجعه الإحساس بالضغط والعجز الذي يجب ألا نقبله أو نستسلم له.

يجب على المفكر المسلم، والقيادي المسلم، والمربي المسلم، والمثقف المسلم، أن يرحب بكل شاردة وواردة من النقد البناء الهادف إلى فهم أعمق وأشمل لحال الأمة وتحسس مواطن الداء في كيانها ما دام ذلك لا يمس ثوابتها من الإيمان بالله وكتابه ورسوله، واليوم الآخر، وقصد الخير والعدل في الحياة.

هذه قضية ثقافية منهجية أساسية يجب أن نتحلى بها، ونربي أبنائنا عليها حتى يربي فيهم حس الإحسان والمسؤولية، ويقوم في نفوسهم ميزان الصلاح والإصلاح ومقاومة الفساد ودرء الانحراف.

وقفة تأمل:

وإذا أدركنا أن الأمة لا تنقصها الموارد الخام البشرية والمادية، وأن الأمة غنية بالغايات والمبادئ والقيم الإسلامية السامية، فلا بد من إرجاع قصور أداء شعوب الأمة إلى تشوهات الجانب الثقافي الذي ينتج في أساسه عن قصور مناهج الفكر وتشوهاته التي لا بد أن تعكس على مناهج تربية أبناء الأمة وتكوين عقلية أبنائها وبنائها النفسي.

إن الاقتصار على النظر الجزئي في تتبع وجوه قصور أبناء الأمة وشعوبها الأداء السياسي والاقتصادي والتكنولوجي، وتخلف مؤسساتها، وتفاصيل هذا القصور والتخلف لن يمكن مفكري الأمة من إدراك كليات الأزمة التي تواجه الأمة وشعوبها، ومن تشخيص أصل الداء ومعرفة كوامن البلاء.

إن حركات الإصلاح الإسلامي قد تنادت بجهاد الإصلاح والتقويم منذ سقوط الخلافة الراشدة، وانتهى رجال مدرسة الخلافة (المدينة) إلى العزل والعزلة بعد أكثر من مئة عام من الصراع والمناجزة لدولة القبليات والعصبيات والنعرات ليتضاءل دورهم في قيادة الأمة وسياساتها ومؤسساتها وحركتها الاجتماعية، مما باعد بينهم وبين الواقع وشوه بالضرورة إدراكهم لحركة الحياة والمجتمع.

ولأكثر من ألف عام بعد أن بلغت العزلة والفصام بين الصفوة الفكرية والصفوة السياسية مداها، وخيم الجمود الفكري والاستبداد السياسي على مقدرات الأمة، ولم يعد يخفى ما بلغته الأمة من التدهور والانحطاط، لم يستطع نداء المفكرين والمصلحين –منذ صيحة أبي حامد الغزالي في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) في "إحياء علوم الدين" ومشروعاتهم الإصلاحية الإسلامية الحضارية –أن يحقق أهدافها العليا في نهضة الأمة، والعودة بها إلى ما هي جديرة به في موقع القيادة والريادة الإنسانية.

ولعل مشروع الإصلاح الإسلامي–الذي قدمه عبد الرحمن الكواكبي في كتابيه"أم القرى" و"طبائع الاستبداد"في بداية القرن العشرين –مازال الأساس الذي يدور في رحاه الفكر الإسلامي والحركة الإسلامية حيث يتمثل الجهد في الوقوف عند عرض مبادئ الإسلام السامية في التوحيد والعدل والشورى والتضامن من ناحية، وفي تحميل الحكومات والصفوة السياسية مسؤولية تدهور الأمة وانحطاط أدائها.

ورغم مضي قرن من الزمان على هذا المشروع، وقرون كثيرة على سواه من الدعوات والمشاريع دون أن يبلغ مشروع الإصلاح الإسلامي غاياته في نهضة الأمة وتحريك كوامن طاقاتها على مستوى العصر والتحديات المطروحة فيه، فإننا إن أخذنا نسبية حركة الإنسانية سنجد أن هوَّة العجز والقصور في أداء شعوب الأمة تزداد اتساعاً في ميزان العلم والتقنية والعمران.

لذلك كان لا بد من وقفة جادة تنظر نظرة نقد ذاتي شجاعة في أعماق الأمة وكليات كيانها فيما وراء المفردات والتفاصيل والأعراض؛ لمعرفة أصول الداء وكوامن الأدواء، وجوهر منطلقات الإصلاح والتغيير.

وإذا شخصنا جوهر انحطاط الأمة وتخلف ركبها، بأنه قصور أداء أبنائها وشعوبها في مختلف وجوه الأداء الحياتي، في السياسة والاقتصاد والمعرفة والعمران، مع ضعف وازع الترابط الاجتماعي، وسلبية النظرة إلى الحياة بحيث لا يعدو مطلب الأمة إلا البقاء، وتأمين لقمة العيش خلواً من التطلعات الإبداعية العمرانية التي يكون للحياة الإنسانية معنى دونها؛ إذا صحّ هذا التشخيص فإن السؤال كيف أمكن أن تتحول أمة الاستخلاف إلى هذا القدر من العجز والقصور والتخلف، وإلى هذا القدر من التفكك والتنازع والتناحر، وإلى هذا القدر من القهر والاستبداد، وإلى هذا القدر من المهانة والخنوع والضياع؟!

للإجابة عن مثل هذا السؤال لا بد من الالتفات إلى ثقافة الأمة التي تنبئ عن بناء عقليتها وعن مناهج تربيتها، وعن تكوين نفسية أبنائها، فالثقافة هي الجذور التي تستمد منها شجرة المجتمع طبائعها الأساسية التي تشكل نوع ثمار أدائها ومذاق عطائها.

كيف بدأت الأزمة:

وجوهر تراثنا الثقافي الذي تمتد فيه جذور كياننا هو الموروث الفقهي بدءاً من عهد تكوين المذاهب الفقهية والعقيدية، التي قام على بنائها ورصفها مثقفو الأمة وعلماؤها في عزلتهم السياسية العمرانية في دأب وإخلاص وتجرد، مما أغنى حبكتها، ورصع رقعتها بمفردات النفائس الفكرية، حتى أصبحت مع الزمن غشاء على بصر الأمة، فلم تعد ترى أصول الرؤية القرآنية إلا بلونها وما ناسب قوالبها فإذا خالف ظاهر الكتاب والسنة قول الصاحب تأول المقلدون الكتاب والسنة ليوافق قول الصاحب.

فإذا شئنا حقاً إصلاح الأداء والقضاء على أسباب قصوره وسلبيته، فإنه لا بد لنا من العمل الجاد على الإصلاح الثقافي وتنقية المدخلات الثقافية في نظام الأمة المعرفي ومناهجها التربوية.

والتلوث الثقافي والتقنية الثقافية لا تحدث عشوائياً، ولكنها ثمرة مناهج التفكير التي تكون العقلية وتولد الأفكار، وتنمي القابليات، وتشكل النفسيات في قدرتها أو قصورها، وفي علميتها أو خرافتها، وفي إيجابيتها وإقدامها ومبادرتها أو في سلبيتها وإحجامها ورهبتها.

ومناهج الفكر إنما هي الأدوات التي يبنيها العقل ويرسم خطتها متأثراً ببيئته وحاجاته والظروف التي تحيط به، فإذا تغيرت البيئات والحاجات والتحديات والظروف التي تحيط بالإنسان، فإنه إذا لم يقم المفكرون والعلماء بإعادة النظر في مناهج الفكر وإعادة رسم خطتها لتناسب البيئة والحاجات والتحديات والظروف المستجدة المتغيرة أمام الأمة، فلا بد أن تنشأ لدى الأمة أزمة فكرية خطيرة تهدد كيانها وتقضي على فرصها في الإصلاح والتجديد.

ولذلك علينا أن نتعرف إلى البيئة والظروف التي أحاطت بأرباب التراث الإسلامي والظروف التي أحاطت بهم في أثناء بناء هذا التراث والمناهج الفكرية التي بنوها ورسموا خطتها، حتى يمكننا في ضوء الظروف التي تحيط بنا، والتحديات التي تواجهنا، فهم وجوه الإحسان، ووجوه القصور في ذلك التراث ضمن ظروفها وضمن ظروفنا، وحتى يمكننا معرفة معالم خطة بناء المناهج التي تناسب بيئتنا وظروفنا والتحديات المطروحة على أمتنا، وحتى تكون هذه المناهج هادياً لنا لتنقية الثقافة التي نقدمها لأبنائنا، وتصفية رؤية أصول حضارتنا ومعارفنا، بما يعين على حسن بناء عقلية ونفسية أجيالنا ومؤسسات مجتمعاتنا.

عوامل التغير والانحطاط:

لقد بدأ الإسلام-بصفاء سماء الصحراء وتوهج كواكبها في حالك ظلام ليل الجاهلية –برؤية قرآنية كوونية توحيدية فطرية سائغة، وقيم ومبادئ هادية تقصد إلى الخير والإحسان والإتفاق، وتحيي الضمائر وتبني حسن المسؤولية، وقد جسد رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام هذه لارؤية وهذه الرسالة في مجتمع العدل والتضامن والشورى، وخاطب الناس على قدر عقولهم، وساسهم بما يناسب أحوالهم، يوقر كبيرهم ويرحم صغيرهم، ويقيم العدل بينهم ويتولى بالعناية والرعاية ضعيفهم، وتابعه في ذلك حكومة خلفائه وأصحابه الذين آمنوا برسالته، التي دعا وبشر بها العرب الكرام الأحرار، فخالطت سويداء قلوب أبناء الصحراء العذراء البضة الطرية، داعياً إلى التفكر والتدبر والعبرة والنظر، والعمل الصالح فيما ينفع دينهم ودنياهم. وكانوا أقوياء فأخذوها بقوة وأمانة وتقابلوا معها في يسر

وتلقائية وسن بصيرة، لتنقى عقولهم ونفوسهم من أدران الجهالة الوثنية، وتدفعها إلى مدارج التوحيد والاستخلاف والعمران.

ومع سرعة امتداد دولة الإسلام اندسَ تحت عباءتها–التي وصت أرضها ما بين شواطئ بحور الظلمات–كثير مما حوته من القبليات والعصبيات والتقاليد والعقائد والديان والفلسفات الأعرابية واليهودية والنصرانية والمجوسية والهندوكية والفلسفات والثقافات. وكان لابد أن ينال القادة والمعلمين والأصحاب من الإعياء بسبب تفاقم الأعباء وسطوة السنون وعادية الموت والفناء، وكان لابد أن تتفاعل هذه العوامل –مع ضعف إمكانات إعادة التربية لأبناء هذه الشعوب الكثيرة وفي وقت قصير– لينجم عنها صراعات تختلط فيها الأهداف والغايات، وتطل من بينها رؤوس فتن العصبيات والعنصريات وبقايا التقاليد والفلسفات.

وبحكم تلاحق الأحداث، وضعف الوسائل، وجسامة التحديات التي واجهت دولة المدينة في مجال التربية أمام سيل القبائل والشعوب التي خضعت لدولة الإسلام، وجندت في مؤسساته وجيوشه، وقد حكم السيف للفصل فيما شجر بينها من الصراعات، لذلك كان لابد أن تلحق الهزيمة بالقليل المثخن، وأن يخلو وجه السياسة والسلطان وتصريف الحياة لزعامات العصبيات والعنصريات وطلاب المنافع ورجال الأحزاب لينعزل رجال الفكر والعلم والدعوة في المساجد والزوايا للدرس والتأليف والتعليم والفتوى في خاصة شؤون الأفراد، وفي معرفة أصول عقائدهم وأداء شعائرهم وما يريدون من أمور عقودهم ومعاملاتهم، والحكم فيما ينشأ بينهم ويلجؤون إليهم فيها من خلافاتهم.

هذا العزل والانعزال أضعف حس المثقفين والعلماء والدعاة بواقع تفاعلات المجتمع متغيراته وفعل عامل الزمان والمكان في تشكل واقع الإنسان المسلم وتصورات وتحدياته.

ولما كان واقع العلوم والمعارف ولاسيّما الإنسانية منها ماتزال في مهدها، يسيطر عليها الفكر النظري والتيه الغيبي الفلسفي والمنطق الصوري اليوناني، فلا عجب أن تغم الرؤية الاستخلافية العلمية الفطرية الإسلامي، وأن يتسلل إلى الفكر الإسلامي في التيه الصوري منهجٌ فكريٌ يعكس هذه العزلة الاجتماعية والغيبة الفكرية، ويستجيب لواقعها لينتهي الأمر بالعلم والعلماء لأن يغلق فكرهم في حلقة مدرسية تدور في حلقات مفرغة من الدراسات النظرية التاريخية تجدب معها القدرة على الاجتهاد والتجديد والإبداع.

في هذه البيئة الفكرية النظرية القاصرة المغلقة لا عجب أن تتحول العقيدة في عهودها المتأخرة، وبكل حسن النية، إلى سفسطة جدلية نظرية معزولة عن الواقع، الذي كان يجب أن تكون هذه العقدة أساس نظامه. ولاعجب أياً أن تنشأ منهجية فكرية مدرسية جزئية تبنى على التقليد والمحاكاة، تتجمد فيها الصور، وتثبت فيها المتغيرات، ويمحى فيها الزمان والمكان، ويهمش في فلكها المغلق المتحجر المعتم كل عقار نير ولاعجب في هذه البيئة الفكرية النظرية المغلقة أن تتشوه الرؤية الكونية فيغيَّب البُعد العام في طرحها، وتخيم السلبية على هذا الطرح فتحظى الشعائر وأعمال الذكر، وما تيسر أمره للقابعين في المدارس والزوايا والتكايات بشرف لقب "العبادات"، ويهون من شؤون جهاد الحياة وإدارة دفتها في استخلاف العمران لتقلص ويهون من شأنها بمسمى "المعاملات".

ولاعجب في بيئة هذا الفقر الفكري أن يقع الفكر النظري المدرسي المعزول في وهم التعارض بين "العقل" و"النقل"، حيث يصبح العقل في كثير م جوانبه توهمات وسفسطات، وحيث بكون النقل في كثير من وجوهه تقليد ومحاكاة تدور معها رحى علاقة العقل والنقل في عالم الأوهام خارج نطاق الزمان والمكان.

ولاعجب أن يُهمّش المبدعون ويحاربوا، ولاعجب أن تخمد طاقة الدفع وكموامن القوة، دون أن تتمكن تراكمات الصنائع من الحدّ من عوامل التمزق والانحطاط غزو الأعداء.

لاعجب في بيئة هذا العجز الفكري أن تتمزق ثقافة الأمة وتتوزع وتضعف روابطها في الزمان والمكان، ولاعجب أن ترى في المكان أثر الأساطير والخرافات والتقاليد الموروثة من ثقافات شعوب المسلمين طاغية، تكاد تمزق وحدة ثقافة الأمة وتجعلها كالثوب الخليق المرقع، ولاعجب أن ترى في الزمان عزلة ثقافية العلماء المدرسية ومصطلحاتها وقضاياها التاريخانية عنة ثقافة العامة الساذجة الخرافية السلبية الاتكالية، وعن ثقافة المدنيين والمتغربين بحيث لا تتواصل ثقافاتهم ولا تتلاقح أفكارهم، ولا تتكامل قواهم، ويتعادى ويلغى بعضهم بعضاً.

طريق الإصلاح:

لقد حضّ القرآن الكريم الإنسان على إعمال الفكر وحذّر من المحاكاة والمتابعة العمياء، وحضّ على التفكير والتدبر في الكون وسننه وآياته، والسعي في إعمار الأرض بالعدل والإحسان والحق والرحمة.

ولم يكن عبثاً أن جاء القرآن الكريم هداية في كليات الحياة في الغيب والشهادة، ولم يفصّل إلا فيما هو من ثابت السنن والطبائع، ولم يكن عبثاً أن ينف الصحابة أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم في شؤون حياتهم، بوصفه عليه الصلاة والسلام الحاكم المدبر لشؤون المجتمع، من غير أن يحتجُّوا بأنَّ تلك الأوامر والتوجهات لم ترد في القرآن، ومع ذلك فإنه نهاهم عن الكتابة والتدوين لأقواله حتى لا يختلط ذلك بالهدي القرآني الموجه إلى أصل طبع الإنسان وحاجت في كل زمان ومكان. ولايمكن أن يفهم هذا النهي على أنه ضنٌّ بالحفظ والصون على أي قدر من الوحي، غنما قصد به مراعاة حاجات الرعية من قومه الذين كان يحكمهم ومراعاة مقتضيات حكمهم وتوجيههم، وذلك شيء مختلف عن متواتر الأفعال وعن أركان الدين التي تتخطى الزمان والمكان، وهذه كان يروي فعل النبي صلى الله عليه وسلم لها جميع عظيم عن جمع عظيم من الناس.

وليس عبثاً حرص الخلفاء الأصحاب أن لا يتداول الناس مرويات أحاديث رسول الله صلى الله علي وسلم خشية أن يصرفوها إلى حال غير الحال المعنية على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وليس عبثاً أن يجتهد الخلفاء الأصحاب في كثير من أحالهم على غير ظاهر شبهها بأحداث السنة النبوية، وعلى غير قياس عليها لما يعمونه من تغير الأحوال ومدلولات الأحداث.

وليس من المستغرب بعد أن اعتزل رجلا اللم والمعرفة وطلاب الصلاح والإصلاح، وعزلوا سياسياً واجتماعياً واقتصادياً في المساجد والزوايا والمدارس أن يلجؤوا إلى جمع كل شاردة وواردة من أحاديث سنة النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه، يستقون منها المعرفة في تيه الغيبة الاجتماعية وقلة الخبرة والدراسية السياسية، وأن يتوسع الرجال في الجمع، وأن يتجرأ الكثير منهم على الرواية التي يزداد مع مرور الزمن استعصاؤها على الضبط والتدقيق وفحص حال السابق من رجالاتها، وفي عصور عصفت بها الصراعات والفتن.

وليس من المستغرب أن يزداد مع الزمن محاكاة الصور التاريخية وتصوراتها، والرغبة عن إعمال الفكر، والاجتهاد والاكتفاء بالنصوص المغلقة حقاً أو باطلاً بالقدسيات. وأصبح كثير من موهومها وضعيفها ومدخولها في كثير ن الأحيان باباً إلى الخلط والتشويه والشعوذة خلف ستار من موهوم الصدق والقدسية، ولتصبح بعض الألفاظ على غير سياقها ولا كلية دلالاتها مشجباً تُعلق عليه أساطير الأمم وخرافاتها ومنحول النصوص وأوهامها.

لكل هذا، وفي واقع حال الأمة وثقافة عامتها، وما خيّم على ثقافتها من الجمود في عصور انحطاطها، فإنّه يجب علينا العمل الجاد لحماية دين الله وفكر الأمة أن تستخدم السنة ومرويات الأحاديث شماعة تُعلق عليها أوهام النفوس وفكر الشعوذة وقتل الروح العلمية والمبادرة في مجال السنين الكونية، لتصبح القداسة–في عتمة المدرسية وتراث الفلسفات والجاهليات– في ثقافة العامة، وسيلة لقهر العقل والضمير المسلم، وحتى لا يتحول معها رجال الثقافة الإسلامية حراساً للتخلف في أداء الأمة.

إنّ قهر القداسة وهو معكوس هداية القداسة بُعدٌ خطير في الثقافات المتحجرة، يفسر هيمنتها على النفوس، رغم تشوهاتها، بحيث تجعل المقهورين حراساً على سجونهم وتخلفهم وانحطاط سبل حياتهم، ولعل موضع المنبوذين في المجتمع والثقافة الهندوسية، يوضح كيف يمكن أن تصبح القداسة أداة قهر فالإنسان، ليصبح من خلال آلية وهم تناسخ الأرواح، في حالة الثقافة الهندوسية، حارساً لسجن مهانته واستعباده.

فجلال القداسة، إذا أُسيء استخدامه، يصبح أداة قهر جبارة، تسحق الضمير، وتدمر العقل، وتميت الثقافة، وتحجّر بيضتها، وتصنع من حملتها حراساً على تخلف الشعوب والأمم المقهورة وضعفهم وانحطاط حضارتهم.

لقد كان من الطبيعي في هذه البيئة الفكرية النظرية المغلقة التي آلت إليها حال الثقافة والحضارة الإسلامية، رغم الجهود المضنية المخلصة، التي أثمرت نظرات وتأملات واجتهادات جزئية ذكية لكثير من العلماء، أفادت منها حاجة عصورهم وأقوامهم، إلا أنّ ذلك العطاء والنظرات الجزئية الذكية م تكن كافية لتجديد طاقة الأمة واستعادة قوة الدفع وعناصر النهضة الاستخلافية في كيانها حتى اليوم.

لقد كان الإشكال الأكبر لهذه البيئة الفكرية المنعزلة المغلقة أنها ورّثتنا وأرست ونظّرت وجذّرت لدينا الرؤية الكلية المشوهة لواقع مجتمعهم وعصرهم الذي يعكس بالضرورة عزلة الفكر والعلماء عن توجيه الحياة العامة، وتغييب البعد العام في كيان المجتمع وأدائه، ويسم شخصية أعضاء المجتمع ومناهج تربيتهم وتكوينهم النفسي بالفردية والسلبية والخنوع، لا ترى في مؤلفات الفقه– التي ترسم صورة الحياة ومناشطها– جانب الحياة العام وأبعادها وأهدافها ومبادئها ومؤسساتها، فقد أصبح الفكر ينصب في مجمله على الجانب الفردي فيما أطّر باسم "العبادات" و"المعاملات" التي تتعرض جوهرياً إلى الأحكام والضوابط المتعلقة بـ"الذكر و"الشعائر" وعقود المعاملات الفردية. وذلك أن الجانب

الفردي أصبح وحده هو مجال التأثير والنفوذ الفكري والديني للمفكرين والعلماء بعيداً عن شؤون الجماعة العامة في الحكم والسياسة ومؤسساتها.

ولم يقتصر أثر هذه العزلة في تشويه الرؤية الكونية الاجتماعية الإسلامية في إهمال الحياة العامة في فكر الأمة وضميرها وتربية أبنائها، بل إن هذه العزلة الفكرية البائسة عن الحياة والممارسة، مع ما صاحبها من علوم إنسانية نظرية فلسفية لاهوتية مشوهة، عكس كل لك نفسه في تشويه الحرية الإسلامية في اختراع مصطلح "العبادات" و"المعاملات في تصنيف كتب الفقه الإسلامي، حيث أصبح يطلق على الذكر والشعائر مسمى "العبادات" مع أنهما في أصل الرؤية الإسلامية مقصود بهما استحضار للضمير والمسؤولية في كيان الفرد المسلم لتحفز قواه الإيمانية إلى العمل الصالح أو الجهاد في مختلف جوانب الحياة في تزكية النفس، وطلب العلم والمعرفة، وكسب الرزق وإعمار الأرض، ونفع الخلق، ونشر الدعوة، وحماية ديار الأمة، ونصرة المستضعفين وماعدا ذلك من وجوه أنشطة الحياة، وفي نفس الوقت أصبحت الحياة والعمل في الصورة الفقهية مجرد معاملات دنيوية، تكاد تكون مجردة من صبغة الدين والروح والجهاد والسعي، رغم أنَّ ذلك في أصل الرؤية الإسلامية يمثل لب الامتحان الدنيوي، وجوهر التوجه الإرادي للإنسان باتجاه النية أو القصد الذي يمثل البعد الروحي في الإسلام في كل عمل من أعمال الجوارح، حتى في لذة البضع ومواضع رغبات النفوس وشهواتها.

إن الرؤية القرآنية الكونيّة لا تتحدث عن "عبادات" و"معاملات"، ولكنها تتحدث ن إيمان توحيدي يؤدي إلى العمل الصالح، والعمل الصالح في الرؤية القرآنية يتعلق بالمقاصد والنيات واتباع السن في كل عمل ومن أعمال جوارح الإنسان. أما الشعائر وكما يجري مجراها من الصلوات والصيام والحج والزكوات فهي كمر الله ولاستحضار العلاقة به وبالدار الأخرى حضاً على الجهاز في الحياة بكل أعمال الجوارح في حسن أدائها على وجوهها كافة.

إن كلية الرؤية الإسلامية هي الإيمان بالله واليوم الآخر، للذين هما ميزان وضمان إخلاص النية وقصد الخير في العمل في هذه الدنيا، ليكون عملاً صالحاً بالقصد الخير والراشد بالسنين، يزكي النفس ويطهرها؛ لتكون أهلاً لمقام الصدق والنعيم المقيم في الملأ الأعلى.

لاعجب وقد شوهدت الرؤية الإسلامية الكلية – بسبب ما تعرضت له الأمة من الظروف والعوامل الاجتماعية والمعرفية–بعيداً عن الرؤية القرآنية لتعكس مناخ المعارف الإغريقية والفصام البئيس بين العلماء والسلاطين أن تخبو

جذوة الإيمان، وتفقد فاعليتها في صياغة الحياة ونشاطاتها، وأن يذبل ضمير الأمة، وأن تضعف عنايتها بشؤون الجماعة، وسد ثغراتها، ورعاية حاجاتها وضعفائها، وأن يخنع أبناؤها وأن تتفكك عراها، ويتمزق نسج وحدتها، ويفشو النزاع والتناحر بين أبنائها وشعوبها وأقطارها، وأن تصحب من سماتها السلبية والاتكالية وموت طموحات التعن والاتقان والسياحة في الأرض، وأن تنصرف معارفها عن طموحات التمعدن في آيات الطبائع والسنن في الكائنات، والجمع بين قراءة آيات الكتاب وآيات الكون، لتصحي لقمة البقاء، كالأنعام والسائمة، غاية الطلب، فتنهار الحضارة ويخرب العمران، وتذوي مع الزمان الصنائع، ويشيع الجهل، ويخبو الإبداع والعطاء، وتذل البيضة وتتخلف الأمة عن ركب الحضارات والأمم.

منهجية المحاكاة والتخلف:

لا يكفي أن نتبين ما أصاب الرؤية الكلية من تشويه تغييب الجانب العام للحياة والمجتمع وسلبية النظرة إلى الحياة في تصنيفها إلى عبادات دينية ومعاملات دنيوية، بل لابد لنا من معرفة المنهجية التي عكست الرؤية الشائع ة والمعارف القاصرة وتجاوبت معها، لن عدم معرفة سمات تلك المنهجية سيجعل تصوراتنا وخططنا الحياتية تستمر حبيسة قصور تلك الرؤية وتلك المنهجية.

لقد كانت الطبيعة التاريخية لتلك البيئة الفكرية والمعرفية المعزولة النظرية طبيعة نقلية تتنكر للعقل وتنكره وتتصارع معه في معركة لا تنتهي، لأنها انتهت لتصبح في كثير من جوانبها تقليدية نقلية وثقافة منغلقة خابية لا تملك الرغبة ولا الوسيلة لاستخدام العقل للبحث والتنقيب في الطبائع الإنسانية والكونية والوقائع الزمانية والمكانية التي تتفاعل فيها الطبائع والأحداث، ومعرفة موضع الهداية والإرشاد لإلهي فيها، لتحتوي المتغيرات، وتتصدى للتحديات، وتحفظ التوازن والقدرة للمجتمع، وتحافظ على قصب السبق للأمة.

والمنهجية النقلية المنغلقة هي فغي جوهرها منهجية جزئية بالمفردات بعيداً عن إطارها التاريخي ومحتواها البيئي، والعوامل الزمانية والمكانية المؤثر فيها ضمن ذلك الإطار وشبكة العوامل المتداخلة معها والمؤثرة فيها.

وإذا كان المنهج الجزئي المعتمد أساساً على أداة قياس مفردات الحوادث بعضها ببعض، فإنّ هذا المنهج لا يمكنه أن يستقيم حين تتغير الصور الكبرى وطبيعة المجتمعات في الزمان والمكان، ولذلك لجأ بع العلماء إلى سد شيء من هذه الثغرة بأداة الاستحسان حين يفشل أداء أداة القياس رغم ظاهر سلامة الحبكة الفنية بالرجوع إلى روح الشريعة، والاستحسان بأقل قدر من العشوائية إلى أن يهتدي الباحث باستخدام أداة القياس إلى ما يقبله حسه الكلي لروح الشريعة وحتى هذا القدر من المبادرة، لتلافي أثار عجز فكر العزلة، ما كان يسهل قبوله والتسليم به في تلك البيئة التي أوغلت في عزلتها مع مرور الزمن ليصبح فكرها نقلياً يوغل في طلب النص، ويركب في سبيله الصعب؛ طلباً لراحة التقليد والمحاكاة؛ واستنفاراً لقهر القداسة في جو تلك العزلة الاجتماعية والصورية المعرفية.

وإذا كانت نقلة مقاصد الشريعة كإصلاح منهجي كلي استهدف إخراج الفكر الإسلامي من عزلته والقفز به فوق المفردات الزمانية المكانية إلى كلية الصورة والعوامل المؤثرة فيها، إلا أن هذه النقلة الإصلاحية لم يكتب لها النجاح في إخراج الفكر الإسلامي من نقلته وجزئيته؛لأن العلماء –الذين أفزعهم ما بلغته حالة الأمة من التدهور الذي كشف عوارها هجمة أعدائها وقوة نمائهم وفاعلية أداء مؤسساتهم ورفاهية عيشهم –لم تتغير ثقافتهم ولا معارف علومهم فهي ما زالت تدور في وحي العقل الفلسفي والمنطق النظري، خالية في جلها من معارف الدراسات الإنسانية في الطبائع والوقائع الكونية والحياتية، وما يلحقها من عوامل الزمان والمكان وحاجاته وإمكاناته وتحدياته، فكان لا بد لها أن تستمر في دورانها في إطار الفكر الجزئي، حيث لا تعدو دراسة المقاصد تجريد تلك الجزئيات النقلية وإعادة صياغة قضاياها بصيغ كلية لها ذات المحتوى الفكري والدلالة التاريخية.

إننا إذا أردنا المنهجية لمقاصد الشريعة أن تؤدي ثمرتها، وأن تمثل منهجاً كلياً، فلا بد من تغيير المحتوى المعرفي لمناهج الدراسات الإسلامية فيما يتعلق بشأن مجالات الحياة لتجمع إلى جانب النص، بعد تمحيصه، في ظل حاكمية القرآن الكريم، جانب المعارف الإنسانية في الطبائع والسنن الكونية والدراسات العلمية التجريبية في الزمان والمكان للإفادة من كليات هدى الوحي في رسمٍ فعّالٍ لخطة الحياة ونشاطاتها وإدراك أبعاد متغيراتها وحاجاتها وتحدياتها.

ونحن بهذا نحمي النص المقدس فهمه وموضعه، كما أننا لا نضيع القياس ولا نهمله بل إننا نضعه، كأداة منهجية جزئية في موضعها الصحيح في إطار المنهجية الإسلامية الكلية.

أثر المنهجية المعرفية في مناهج التربية:

والسؤال المهم الآن هو كيف أثرت هذه البيئة العلمية المغلقة المنعزلة، وهذه المنهجية النقلية الجزئية على مناهج التربية في الأمة وفي تكوين عقليتها وبناء نفسية أبنائها؟

لقد سبق أن أوضحنا أن بيئة الفصام بين نخبة العلماء ونخبة السلاطين وعزلتهم عن بعضها بعضاً، أورثت الفريقين عدم القدرة على إدراك المتغيرات والتفاعل معها وتطوير الوسائل المناسبة لاحتوائها، ولذلك لجأ الفريقان – بغض النظر عن النوايا –إلى الإرهاب والعنف وقهر القداسة للتحكم في الموقف، فاستخدام الإرهاب والقوة والعنف هو في مثل هذه الأحوال حيلة العاجز المضطر، وهذا يفسر لماذا كانت جل تعاملات الصفوات السياسية مع الفئات المعارضة والمتمردة هو إرهاب الاستبداد والتنكيل بالمعارضين، كما غلبت –من منطلق العجز –على خطاب كثير من الصفوة العلمية الدينية خطاب إرهاب التهديد والوعيد، وتلبيس جل الخطاب بالمسحة المقدسة، وتصيد النصوص وليِّ أعناقها، إن لم يكن تدليسها، للتذرع بها في الخطاب لإلغاء دور العقل والمعرفة الإنسانية في امتحان سلامة الخطاب وصحة مأخذه، والإغراق في التعقيدات النظرية والفلسفية التي يحجب دخانها جمهور الأمة ويدفع قطعانها المرهبة السارية إلى الخضوع سياسة، والتقليد ديناً، وإلى معرفة الخرافة والشعوذة والعجز والتواكل سلوكاً وفكراً وتدبيراً.

كذلك سبق أن أوضحنا أننا ورثنا بسبب الفصام وما ترتب عليه من العجز وعقلية المتابعة وتاريخية المعرفة، أن تضخم دور النص على حساب المعرفة الإنسانية التي خبا حظ العناية العلمية بها والتي لم يعد لها، في ضمير الأمة، بُعد روحي وأصبح التحصيل الديني في المدارس للطبقة الدينية المثقفة ينحصر في استظهار النصوص والمتون الغابرة لتندثر في التربية والتعليم طاقات المبادرة والإبداع، وينمو بسبب الإرهاب والتاريخية سرطان الخوف والخنوع والتقليد، ولتتسع الهوة بين ثقافة الخاصة الفلسفية النظرية المعقدة وثقافة العامة الغارقة في الأوهام والخرافة والاتكالية وغيبوبة التصوف. وحتى وقت قريب، قبل أن يشيع نظام التعليم الحديث، لم يكن حظ الصغار والناشئة من أبناء العامة غير شيء من حفظ القرآن، وشيء من علم الحساب اللذين يدرسان في الكتائب ولم يكن حظ الكبار من العامة غير شيء من الترغيب والترهيب والقليل مما يسمى معارف العبادات في مواعظ صلوات الجمع وحلقات الوعظ والذكر في الزوايا والمساجد.

إن من المهم لكي ندرك مدى التخلف المعرفي لثقافة جمهور الأمة وقصور أدائهم، وتشوه بنائهم النفسي والمعرفي، أن نعلم أن جل الوصايا التي وجهت إلى المؤدبين في مراعاة الرفق في تعليم الصبيان وحسن تعليمهم، وتوسيع قاعدة معارفهم، إنما كانت وصايا موجهة إلى المؤدبين القائمين على تعليم أبناء الخاصة من علية القوم الذين يقومون بتعليم أبنائهم في دورهم، وليس شيئاً من ذلك من مفاهيم تربية أبناء عامة الأمة في الكتاتيب وممارساتها التي كان سوء حالها وضآلة معارفها وانحطاط مستوى قدرة معلميها موضع النقد من القلائل الذين عنوا بالحديث عنها.

وهكذا نستطيع أن نرى أن تشوه الرؤية الكلية قد أسهم في تكوين ثقافة وأدبيات فقهية تربوية فردية سلبية، كما أن العزلة الاجتماعية والنظرية الفكرية التي قبع في زواياها المفكرون والعلماء، أسهمت في تكوين عقلية نقلية أسهمت بدورها في تكوين منهجية جزئية صبغت التربية والتعليم بطغيان الجانب المعلوماتي النصي المبني على الاستظهار والمتابعة والتقليد. كل ذلك أورث مناهج التربية عدم القدرة على سبر أغوار الجانب النفسي، والعناية به في بناء الكيان النفسي والأداء الإيجابي للناشئة، وتنمية قدراتهم الإبداعية في إدراك الطبائع والسنن الكونية، مما يفسر كثيراً من جوانب قصور أداء الأمة وتخلفها في ركب حضارة الأمم.

سبيل الإصلاح:

إننا إذا أردنا أن نقوم بإصلاح حقيقي تربوي، فلا بد لنا من إعادة النظر في رؤيتنا الإنسانية الحضارية بحيث نعيد إليها الجانب العام والجماعي في الشورى والتناصح والتضامن والتناصر بين أبناء الأمة في الأهل والجوار والوطن والأمة، وأن نعيد إلى حياتنا وتنظيماتنا الاجتماعية على جميع المستويات توازن الأبعاد الجماعية والفردية، كما نعيد إليها إيجابية الاستخلاف وروح جهاد الإتقان والإحسان.

كل هذا يوجب علينا أن نعيد النظر في منهجية فكرنا، بحيث نعيد التوازن فيها بين دور النص للاستجابة للهداية الإلهية، والإفادة من إيجابيات مفردات التراث وعبر التاريخ ودروسه، وبين دور العقل والمعرفة الإنسانية في معرفة الواقع وفهم العلل والطبائع الكونية في الأنفس والمجتمعات والكائنات لتسخيرها، وتنزيل مواقع الهدي الإلهي منها

موقعها الصحيح في ترشيد الغايات والقيم والمفاهيم والأنظمة والممارسات، وتفعيل طاقات الإيمان ووازع الضمير وحس الجهاد والمسؤولية في أداء الفرد والمجتمع.

كما يجب أن نعيد النظر في منهجية البحث والدرس والنظر العلمي والمدرسي؛ لنتخطى المنهجية الجزئية النصية إلى المنهجية الكلية التحليلية المنضبطة التي تضع المفردات وأدوات النظر الجزئية في موضعها الصحيح، بحيث يحيط الناظر بكليات الأوضاع والحالات والقضايا والطبائع، ويضع مفردات مكوناتها في موضعها الصحيح، وبأوزانها الصحيحة في سياقها الزماني والمكاني المناسب.

لا بد للأمة من استعادة رؤيتها الكونية القرآنية، وإصلاح مناهج تفكيرها وتربيتها للتخلص من أمراض القهر والإرهاب والسلبية والاتكالية ومن قصور الأداء والتخلص من أمراض الفردية والتمزق والصراع، لتنتهي إلى نور الهداية، وعز العطاء، وقوة الوحدة، والعلم والإبداع.

لا بد لنا من تنقية ثقافتنا ومكوناتها من كل ما يعوق الروح العلمية، وجدية النظر في السنن الكونية من الضلالات والخرافات والشعوذة والخزعبلات، وهذا لا يكون إلا بإصلاح المنهج الفكري أولاً بحيث يعتمد الوحي والعقل والكون مصادر معرفته كما يعتمد الأساليب المنهجية الشمولية التحليلية المنضبطة وما يتبعها من أدوات تناسب كل مجال معرفي أداة لتوليد معرفته، ونتخلص –بذلك من العجز والقصور المعرفي، الذي أورثتنا إياه العزلة المعرفية والتقليل من شأن معارف العقل في جوانبها الإنسانية والكونية التطبيقية. وبهذه المنهجية نستطيع أن ننقب في تراثنا الفكري لانتقاء نفائسه وإسهاماته، ونتلخص من محدودية زمانه ومكانه، ومن أخطاء توهماته وانحرافاته.

جوهر الإصلاح التربوي:

إذا استقامت لنا العقيدة والرؤية الكونية القرآنية، وإذا استقامت مناهج الفكر ووسائله وأدواته، يمكننا عند ذلك فقط إصلاح مناهجنا التربوية والتعليمية التي تمكننا من إعادة بناء الأمة النفسي وإصلاح مناهج تعليم أبنائها المعرفي، بحيث يتحلى المسلم وجدانياً ومعرفياً بالصدق والشجاعة الأدبية والأمانة والجرأة الفكرية والإبداع والقدرة العمرانية ومن

خلال سلامة الرؤية وسلامة منهج الفكر، فإننا نستطيع أن نقضي في مناهج تربيتنا وتعليمنا على خطاب الإرهاب وأساليبه، ونقضي على منهج التقليد والاستظهار وسلبياته، ونبني إنسان تعبيد الاستخلاف وقدرته وكرامته.

إن عيوب تكويننا النفسي وقصورنا المعرفي وعجزنا العمراني مرده إلى تشويه رؤيتنا الكونية وقصور منهجنا الفكري اللذين أسهما وتكاتفا في انحطاط منهجنا التربوي والتعليمي وبنائنا النفسي.

لا بد لنا من العمل على التخلص من:

-الرؤية العقيدية الكونية الاجتماعية السلبية المشوهة.

-والمنهج الفكري الجزئي القاصر.

-والمنهج التربوي الإرهابي التقليدي الاستظهاري المدمر.

إن مسؤولية التنقية الثقافية والإصلاح التربوي هي مسؤولية المفكرين والمثقفين الإسلاميين الذين عليهم واجب المتمعن وإعادة النظر في موروثنا الفكري الثقافي الذي تمتد فيه جذور تكويننا الاجتماعي والنفسي والوجداني وأن يقوموا بتنقيته وإعادة صياغته وعرضه مبرءاً من التشوهات والانحرافات بأسلوب يوحد ثقافة الأمة وفكرها وضميرها، وتتواصل به مواقعها وحاجاتها وتحدياتها.

إن على المفكرين والمثقفين أن يقصدوا منهجياً بالخطاب والقناعة صاحب المصلحة الحريص عليها دون سواها، وذلك هو حس الأبوة الغريزي، الذي يقصد وحده نافع التغيير لمصلحة الناشئة ومستقبل الأمة في طري عود الأبناء.ففي ذلك العود الطري، دون اليبس، يسري في الشرايين ماء الوجدان تلافيف العقل يشع نور العرفان ثمراً خيراً نافعاً طيب النكهة حلو المذاق.

إن الطفولة والمراهقة هي المراحل التي يتم فيها أساس البناء النفسي الذي يميز معدن كبيعة الفرد الفكرية والاجتماعية، وللآباء في هذه المرحلة بالدرجة الأولى الأثر الأكبر في تشكيل هذه النفسية وأبعادها وطبيعة انفعالاتها الوجدانية، فهم كالعدسات الملونة على الأعين ليس المهم معها ما يرى الطفل واليافع ويسمع، ولكن المهم كيف يفهم

ما يرى ويسمع، حيث يؤثر الآباء بتوجيهاتهم وأساليبهم في التأثير والتواصل مع هؤلاء الأطفال واليافعين في تشكيلها بالقدر الذي يهدفون إليه ويقصدون.

إن توفير الثقافة السليمة للآباء، وتزويدهم بالقدرات والخبرات من خلال الأدبيات التي ينتجها المفكرون والتربويون المسلمون كيفاً وكماً، سيكون لها أكبر الأثر في توجهات هؤلاء وتكوين عقلياتهم.إن ما يقع الآباء فيه من التقصير راجع إلى جهلهم وإلى الثقافة المشوهة المقدمة لهم، وليس لقصور غريزي فيهم عن طلب ما فيه مصلحة أبنائهم.إن واجب المفكرين والتربويين أن يقدموا من الأدبيات ما يبصر الآباء ويكسب قناعتهم، ومن المفاهيم والمعلومات ما يمكنهم من أداء مهمتهم وتوجيه أبنائهم.

ويأتي بعد ذلك ما يوجه من أدبيات للمعلمين تبصرهم بالآفات الثقافية وبدائلها الإيجابية، وتزويدهم بالمواد التربوية والتعليمية، التي تساند جهودهم ضمن إطارهم الوظيفي لما يمتازون به من إرادة الخير والحب لتلاميذهم.

أما السياسات الحكومية والإعلامية فالتغييرات الأساسية تحدث فيها عادة تبعاً للوعي الذي تدفعه التغيرات التي تحدث في عقلية جمهور الأمة ووجدانها، وتؤثر تلقائياً في طبيعة توجهاتها ومصالحها، ولذلك لا ينبغي للمفكرين والتربويين تعجل نتائج خطابهم والسعي لترشيدها، وقصد ذلك في العلاقة التبادلية بين القاعدة وصنع القرار، فكلما تحسن نوع القاعدة الشعبية في نوعية الأفراد وأدائهم وتطلعاتهم، أدى ذلك إلى التأثير الإيجابي في القرار السياسي الذي بدوره يعطي مجالاً أوسع للتغيير الإيجابي في حال الأمة وحال أفرادها ومؤسساتها.

إن جوهر عبء التغيير يقع على عاتق المفكرين والتربويين من خلال الآباء والمدرسين بالدرجة الأولى، وعليهم المبادرة بحمل مسؤولياتهم دون انتظار للأدوار الرسمية التي تأتي؛ ثمرة واستجابة لجهود مبادرتهم وتأثيرهم في قاعدة بناء فكر ناشئة الأمة وتوجهات وجدانهم.

إن الطفل وتنمية الفكرية والنفسية، كانت ومازال تمثل البعد الغائب في أداء مفكري الأمة ودعاة الإصلاح فيها، وكان خطابهم —وما زال—يُعنى بالبالغين، ولا بد لنا لإحداث التغيير في وجدان الأمة وبنائها النفسي أن نسد هذه الثغرة ونستعيد هذا البعد، ونُهَيّئ الأسس لنجاح مشروع الإصلاح الإسلامي في النفس والمجتمع.

وعلينا أن نذكر أنه ليس القصد من هذه النظرة الناقدة إلقاء اللوم على أحدأو جيل، أو تهميناً من شأن عطاء الأجيال في أزمانها، وما حققته وما نهلته من روح الإسلام من إنجازات جعلت الأمة، لأمد طويل بكل المقاييس، هي منارة العلم والحضارة.

كما أنه ليس من أهداف هذه الورقة التقليل من شأن أي جهد لأي فئة من فئات الأمة تقوم على ثغرة من ثغرات جهادها في السياسة أو الاقتصاد أو التعليم أو الدعوة أو جهاد الأعداء، فكل ذلك واجب، والبقاء على ثغراته ضرورة، وإن ما يقصد إليه البحث هو مزيد من ترشيد العمل ودعم قواعده ةوتفعيل طاقاته، وإعداد الأجيال معرفياً ونفسياً للقيام بواجبات الحياة الإسلامية في مختلف وجوهها بقدرة أفضل، وأداء أكمل، تمكن الأمة من تحقيق أهداف مشروع الإصلاح الإسلامي كاملة بإذن الله.

إن القصد الأسمى لهذا البحث هو الاتصال مجدداً بروح الإسلام ودفعه الإيماني العمراني لمواجهة تحديات زماننا التي يأتي على رأسها تنمية الروح العلمية الإبداعية، وبوسائل العصر وإمكاناته، وبروح الإقدام والمبادرة والإبداع التي نحن أهل لها، وأولى بها، مستفيدين في ذلك من إيجابيات مفردات تراث الأجيال الذين أسهموا في خدمة الأمة والحضارة، وبصورة نتخطى بها عثراتهم التي أملتها ظروفهم التاريخية، نتواصل بذلك معهم في دفع الحياة باتجاه الحق والهدى، وقصد الخير، وعمارة الكون، ونكون بقدراتنا الحضارية حقاً بين الأمم في موضع القدرة والاحترام، لنضع أمام البشرية تحدي الرؤية التوحيدية الأخلاقية الاستخلافية الإسلامية في هداية الإنسان وعمارة الكون.

والله من وراء القصد وبه العون ومنه التوفيق